01 / قصيدة الشعرالعمودي

1) ملامح القصيدة العمودية:

تعتبر قصيدة الشعر العمودي من أقدم النماذج الفنية العربية، ويعود تاريخها إلى امتداد العصر الجاهلي، بل يمكن القول إن الشعر الجاهلي هو أقوى مظهر فني استطاع أن يحفظ مختلف أنواع التراث العربي القديم في مختلف مجالاته الفكرية والاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية.

وقد كان هذا الموضوع محل اهتمام أوائل كتّاب النقد العربي من أمثال ابن قتيبة وابن سلام والجاحظ، مستندين إلى رأي الأصمعي الذي يرى أن أقدم أنموذج شعري وصلنا من العهد الجاهلي هو لعدي بن ربيعة بن الحارث التغلبي المشهور بالمهلهل، الذي قتل حوالي سنة 96 قبل الهجرة في حرب البسوس، وهو يحاول الأخذ بثأر أخيه كليب...، ويزيد الجاحظ في الامتداد الزمني الذي تعنيه فترة الجاهلية إلى مائتي سنة قبل الإسلام، وأقصى ما يصل بها غيره إلى خمسة قرون...، ومن أشهر محاولات الإحاطة بمفهوم هذا الفن ما أثر عن قدامة بن جعفر من أنه (كلام موزون مقفى ذو معنى)، كما حدد الناقد ابن رشيق عناصره في أربعة وهي: اللفظ والمعنى والوزن والقافية[1]، لكن الواقع الإبداعي الشعري الموروث عن تلك الفترة جعل النقاد يجمعون على أن هذا الأنموذج القديم الذي وصلهم كان في أعلى درجات التنظيم والضبط، بحيث انخرط مئاتُ الشعراء في الإبداع على منواله، ولم يجدوا فيما وصلهم منه أية صورة عن مراحل التأسيس الأولى، أو بعض المحاولات الفاشلة أو القاصرة في مسار بنائه، مما يدل على أن قصيدة الشعر العمودي قديمة العهد، وأنها فَرَضتْ على المبدعين وغيرهم واقعًا فنيًّا مؤثرا في جميع نواحي الحياة عند العرب.

وقد نالت قصيدة الشعر العمودي حظا هائلا من التقعيد والتنظير غداة القرن الثاني الهجري بواسطة علم العروض الذي أبدعه الخليل بن أحمد الفراهيدي (100-170هـ) مستنتجا أهم القواعد التي تضبط قول الشعر العربي في الأوزان والقوافي، واستطاع أن يحصر مجموعة الأوزان (البحور) التي جاء على منوالها أنموذج الشعر العمودي كما وصل إليه، حيث قام بوضع أوزان خمسة عشر بحرا في

[1] ينظر: ابن رشيق: العمدة، تح: محي الدين عبد الحميد، دار السعادة، القاهرة، 1955، ج1، ص: 77.

الشعر العربي وهي: الطويل ـ المديد ـ البسيط ـ الوافر ـ الكامل ـ الهزج ـ الرجز ـ الرمل ـ السريع ـ المنسرح ـ الخفيف ـ المضارع ـ المقتضب ـ المجتث ـ المتقارب، ويقال إن الأخفش استدرك على الخليل بحر المتدارك، لكن الواقع الإبداعي يثبت أن الشعراء لم يستعملوا في أوزانهم بحر المتدارك حتى زمن الخليل، وأول من استعمله هو الشاعر أبو الحسن الحُصَري القيرواني المتوفى سنة 488هـ، في قصيدته ذات المطلع: يَا لَيْلُ: الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ؟ [2]

كما استطاع الخليل أن يحدد العلاقات الوزنية الرابطة بين مجموعات متكاملة من البحور فيما يسمى بالدوائر العروضية مستنتجا الأوزان المستعملة منها والمهملة.

2) القصيدة العمودية في الشعر المعاصر:

على الرغم من كثرة تيارات التجديد التي طرأت على الإبداع العربي المعاصر، فقد حافظت قصيدة الشعر العمودي على مكانتها، مُعبّرةً عن استمرار رؤية ثقافية وفكرية ممتدة الجذور في التاريخ القومي العربي، ومؤكدةً على قوة تلك الروح الأصيلة حين تتجاوز صفة التقبّل إلى فعل التذوق لدى طبقة عريضة من المتلقين حتى زمننا هذا.

وتعج أقطار الوطن العربي بالعديد من أعلام الشعر العمودي في التاريخ المعاصر، ظلوا محافظين على خط المهلهل وامرئ القيس وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، ومن هؤلاء شاعر الثورة الجزائرية الكبرى مفدي زكرياء (ت1977) صاحب ديوان اللهب المقدس وإلياذة الجزائر التي يقول فيها:

جزائرُ يا مطلعَ المعجـــزات	و يَا حجّة الله في الكائنـــات
و يابسمة الرب في أرضـــه	و يا وجهَهُ الضاحِكَ القسمات
و يا لوحةً في سجل الخلـــو د	تموج بها الصور الحالمـــات
و يا قصةً بث فيها الوجـــود	معاني السمـو بـرَوْع الحيـاة
و يا صفحةً خط فيها البقـــآ	بنار و نور جهاد الأبـــــاة
و يا للبطولات تغزو الدنـــا	وتلهمُـها القيَمَ الخالـــدات
و أسطورةً رددتـها القـــرون	فهاجت بأعماقنـا الذكريـات

[2] ينظر: مصطفى حركات: قواعد الشعر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989، ص: 137.

وهي أبيات جاءت على بحر (المتقارب) الذي يعد من أشهر البحور الصافية، يحتوي على تفعيلة (فعولن) أربعة مرات في كل شطر، أما القافية فمُرْدَفَةٌ، تائية الروي، وأما المعاني فتميل إلى الفخر والاعتزاز، عبّرتْ عنها مفرداتٌ قوية مثل: المعجزات ـ حجة ـ الله ـ الرب ـ الخلود ـ الوجود ـ البقا ـ القيم ـ أسطورة.

ومن العراق الشاعر محمد مهدي الجواهري (ت 1997) الذي حافظ على عمود الشعر، ومن قصائده (سبيل الجماهير):

لَوَانَّ مقاليدَ الجَماهير في يدي ... سَلَكتُ بأوطاني سبيلَ التمرُّدِ
إذَنْ عَلِمَتْ أنْ لا حياةَ لأمّةٍ ... تُحاولُ أن تَحيا بغير التجدُّد
لو الأمرُ في كَفِّي لجهَّزتُ قوّةً ... تُعوّدُ هذا الشعبَ ما لم يُعوَّد
لو الأمرُ في كفِّي لأعلنتُ ثورةً ... على كلِّ هدّام بألفَيْ مشيّد
على كُلِّ رجعيٍّ بألفَيْ مُناهضٍ ... يُرى اليوم مستاءً فيبكي على الغد
ولكنَّني أسعَى بِرجلٍ مَؤوفةٍ ... ويا ربَّما أسطو ولكنْ بلا يَد
وحوليَ برّامونَ مَيْناً وكِذْبَةً ... متى تَختَبرهُم لا تَرى غيرَ قُعد
لعمرُكَ ما التجديدُ في أن يُرى الفَتى ... يَروحُ كما يَهوَى خليعاً ويغتَدي
ولكنَّه بالفكر حُرّاً تزَيّنهُ ... تَجاريبُ مثل الكوكَبِ المُتَوقِّد

ويبدو أن شعراء القصيدة العمودية المعاصرين العرب متفقون ـ في المشرق والمغرب ـ على ضرورة القيام بالثورة، لكنها عند (الجواهري) ثورة اجتماعية متمردة تسعى إلى استئصال الرجعية والكذب والخلاعة، وتصبو إلى تأسيس حياة جديدة تهتم بالتشييد والبناء الفكري الحر المستفيد من مختلف التجارب...، وقد صاغ الشاعر هذه المعاني في قالب قصيدة عمودية، تقوم على بحر (الطويل)، دالية الروي، (مُصَرَّعَة) كسابقتها في البيت الأول.

وحاصل القول إن قصيدة الشعر العمودي قد شقت طريقها الممدود حتى زمننا الراهن في التاريخ المعاصر بكل قوة وثبات وبمختلف خصائصها الفنية...، لكن ثبات الشيء واستمرار وجوده لا ينفي وجود غيره من الناحية الافتراضية.

انتهى